الفصل الثالث

شعراء الزبيريين

١

لاحظنا فيما سبق قلة شعر الزبيريين ، وقد أرجعنا ذلك إلى قصر المدة التى بسط فيها الزبيريون سلطانهم مما لم يمكّن لمذهبهم الذيوع والتأصل والترداد على ألسنة الشعراء إلى جانب ما اتصف به رأس هذا الحزب من بخل وحرص شديدين جعلا كثيرا من الشعراء ينصرفون عنه إلى جانب أعدائه وبخاصة عبد الملك الذى كان بحق سياسيًّا أريباً يعرف كيف يستخدم المال فى جمع الناس من حوله فاستغل الشعراء استغلالا يخدم مطامحه ، واتخذهم ألسنة ، تنافح عن ملكه حتى صار الشعر السياسى أعلى فنون الشعر الأموى صوتاً فى عهده وعهد أبنائه من بعده .

ولم يكن عبد الملك أول من فهم أهمية الدور الذى يلعبه الشعراء فى توطيد أركان الملك والترويج له وقيامه وسيلة وحيدة للإعلام بنشر ألوان الدعاية المختلفة وإبطال أدلة الخصوم .

فقد كان معاوية أول من انتهج هذه السياسة حتى قبل أن يئول إليه الحكم إذا اصطفى كعب بن جعيل التغلبى وسمّاه شاعر الشام واتخذه لساناً ضد على وشيعته مما اضطر عليًّا أن يلقاه بشاعر من شيعته هو النجاشى شاعر العراق . وكذلك استعان بمسكين الدرامى حينما أراد أن يبايع لابنه يزيد فكان أن هاجم مسكين المعارضين والمتلكئين وندد بهم ، وفى عهد معاوية أيضاً أوعز يزيد إلى كعب بن جعيل بأن يهجو الأنصار لوقوفهم إلى جانب على وكان الهجاء مشتعلا آنذاك بين شاعر الأنصار عبد الرحمن بن حسان وشاعر أموى آخر هو عبد الرحمن بن عبد الحكم ، وضن كعب بنفسه

أن يهجو الأنصار تحرجاً ودل يزيد على الأخطل المسيحى فأغراه بالأنصار فهجاهم وترتب على ذلك أن ثارت ثائرة الأنصار ، وشكا النعمان بن بشير إلى معاوية شاعره لكنه لم يعاقبه ولم يمكن منه بشفاعة يزيد .

وقد كان من نتائج هذا الاتجاه الذى يؤمن بدور الشعر فى الانتصار للسياسة والتوطيد لها ، أن تزاحم الشعراء على قصور الأمويين حيث تدفقت الأموال والهبات ، وأصبح لبنى أمية ألسنة فى كل رقعة من الأمصار الإسلامية ، فكان لهم بالشام عدى بن الرقاع والأخطل ، وبالعراق جرير والفرزدق وعبدالله بن الزَبير الأسدى ، وبالجزيرة الأخطل والقطامى وأعشى تغلب ، وبالحجاز الأحوص وأبو العباس الأعمى ، وغيرهم كثيرون من الشعراء الذين انتجعوا رفدهم فى كل مكان ، ولم يشذ عن هذه السنة من بنى أمية غير عمر بن عبد العزيز إذ لم يكن ممن يعطون الشعراء حتى اشتهر بأنه يعطى الفقراء ويمنع الشعراء[١]

ولكن عمر كان يفعل ذلك ضنًّا بأموال المسلمين وليس شحًّا بدليل أنه كان يعطى الشعراء من عطائه الخاص[٢] .

ولكن عبدالله بن الزبير كان على النقيض من هذا تماماً إهدارا لقيمة الشعر ولدوره السياسى فى الدعاء والترويج للأفكار كما كان على النقيض من ذلك أيضاً فى البخل على الشعراء والشح فى العطاء . ويضرب الرواة لذلك مثلا هو أن فضالة بن شريك الأسدى فى أرجح الروايات وفد عليه[٣] فقال : «إن ناقتى قد دبرت ونقبت» فقال له ابن الزبير : «أرقعها بجلد وأخصفها بهلب وسر البردين بها تصح» فقال فضالة : « إنى قد جئتك مستحملا ولم آتك مستوصفاً فلعن الله ناقة حملتنى إليك » فقال له ابن الزبير « إنّ وراكبها » فانصرف فضالة من عنده وهو يقول :

أقول لغلمتى شدوا ركابى أجاوز بطن مكة فى سواد

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٤٩ . (٢) نفس الموضع

(٣) انظر فى هذه الوفادة الأغانى جـ ١٠ ص ١٦٢ ، والإصابة جـ ٣ ص ٢٢٤ ، ومعجم الشعراء ص١٧٦ وتهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ٤٢٤

فمالى حين أقطع ذات عرق إلى ابن الكاهلية من معاد
سيبعد بيننا نصّ المطايا وتعليق الأداوى والمزاد
وكل معبد قد أعملته منا سمهن طلاّع النجاد
أرى الحاجات عند أبى خبيب نكدن ولا أمية فى البلاد
من الأعياص أو من آل حرب أغر كغرة الفرس الجواد
شكوت إليه أن نقبت قلوصى فرد جواب مشدود الصفاد
يضن بناقة ويروم ملكاً محال ذلكمْ غير السداد
وُليت إمارة فبخلت لما وليتهم بملك مستفاد
فإن وليت أمية أبدلوكم بكل سميدع وارى الزناد
إذا لم ألقهم بمنى فإنى ببيت لا يهش له فؤادى[1]

والشاعر هنا لا يكتفى بالتعريض بابن الزبير وببخله وإنما يربط بين الطموح إلى الملك العريض والبخل وبين استحالة اجتماعهما معا ، إذ لايسوغ أن يطلب ابن الزبير ملكاً عريضاً وهو فى نفس الوقت يضن على شاعر يمكن أن يشيد به وبملكه بناقة استوهبها إياه ولكنه بدلا من أن يهبه إياها راح ينصحه ويشير عليه فى علاج ناقته وهو لم يأت مستوصفاً وإنما أتى مستحملا فلم يحمل غير لعنات ابن الزبير . ويمضى الشاعر فيشيد بكرم بنى أمية الفياض وينتهى إلى أنه صائر إليهم ، ولعل فى هذا الحادث ما يفسر السبب فى قلة الشعراء الذين صدروا عن رأى ابن الزّبير فى الخلافة أو دافعوا عنه ، فكأنه لم يكن يعنيه هذا الصدور أو ذلك الدفاع .

وتروى نفس هذه الحادثة مع اختلافات يسيرة على أنها جرت بين عبدالله ابن الزبير بن العوام والشاعر عبدالله بن الزّبير الأسدى[2] كما أن الأبيات السابقة تروى له أيضاً مع اختلاف فى ترتيبها وعددها ، ويبدو أنها قصة واحدة ولكن

---

(١) الأغانى جـ ١ ص ٨ ، جـ ١٠ ص ١٦٥

(٢) الأغانى جـ ١ ص ٨ ، وتاريخ الخلفاء ص ٢١٣ .

شهرة ابن الزبير بالبخل دفعت الرواة، إلى أن ينسجوا على منوالها قصصاً متشابها .

وأيًّا كان الأمر فإن رواياتها بهاتين الصورتين إمعـــان فى التشهير بشح ابن الزبير الذى لم ينج منه المقربون إليه من مثل مولاه أبى حرة يقول فى ذلك على لسان الموالى :

إن الموالى أمست وهى عاتبـــة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنـــا أى الملوك على ما حولنا غلبا[1]

فلا يعنى مولى ابن الزبير ، مادام هو وقومه يشكون الجوع والجهد ، أن يغلب عليهم أى سلطان فالحال واحد والعناء مقيم ، وقد فارق ابن الزبير وقال بعد ذلك فيه :

ما زال فى سورة الأعراف يقرؤها حتى فؤادى مثل الخزّ فى اللين
لو كان بطنك شبرا قد شبعت وقد أفضلت فضلا كثيرا للمساكين
أن امرأ كنت مولاه فضيعنى يرجو الفلاح لعمرى حق مغبون[2]

وهو بهذا إنما يتهكم مما ادعاه ابن الزبير من الزهد والقناعة وقوله إنه إنما شبر بطنه وأن بطنه شبر فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ؟ وأنه العائذ بالبيت والمستنجد بالرب[3] .

وتروى روايات أخرى كثيرة عن بخل عبدالله بن الزبير على الشعراء بخاصة، تقابلها روايات أخرى عن إغداق الأمويين عليهم ، ومن ذلك أن عبدالملك سأل أبا العباس الأعمى عن خبر الملحد حيث كسا أشياعه ولم يكسه واستنشده ما قال فى ذلك ، وكان ابن الزبير قد كسا رجلا من حلفاء بنى أسد بن عبد العزى ثوبين وأمر له ببرد تمر فأنشد أبو العباس :

كست أسد إخوانها ولو أننى ببلدة إخوانى إذن لكسيت
فلم تر عينى مثل قوم تحملـــوا إلى الشام مظلومين منذ بريت

فهوينعى على ابن الزبير أنه لم يكسه ويتحسر على إخوانه الأمويين

---

(١) ، (٢) الأغانى جـ ١ ص ١١
(٣) نفس المرجع

الذين طردوا إلى الشام مظلومين فلو كانوا موجودين لكسوه ، اوقد كساه عبدالملك وأقسم على كل جلسائه وأشياعه أن يكسوه فجعلوا يرمون عليه ، وأمر له بمائة ألف درهم[1] .

وما سقنا هذه الروايات إلا لنوضح أثر شح ابن الزبير فى انفضاض الشعراء من حوله والتحول عنه إلى خصومه ، وقد يكون مفيدا أن نلاحظ ما ادعاه أبو العباس الأعمى وفضالة بن شريك من قبله أو عبدالله بن الزّبير من التحسر على مفارقة بنى أمية وافتقادهم لكرمهم الفياض وكأنهم يجعلون ذلك سبباً فيما حل بالبلاد من شح وبخل .

وقد درج عبدالملك على سياسة تقريب الشعراء حتى وهم بين ظهرانى ابن الزبير وكأنما يغريهم به ، فكانت صلاته وجوائزه تأتى أبا العباس الأعمى من الشام حتى ضاق ابن الزبير بكرم عبد الملك فدعا أبا العباس وأغلظ له وهم به لولا أن كلم فيه وشفع له بأنه رجل مضرور فنفاه إلى الطائف ، وكان نتيجة هذا العمل أن أبا العباس هجا ابن الزبير وهجا قومه جميعاً بالبخل والشح واللؤم والبعد عن المكرمات والمجد فى قوله :

بنى أسد لا تذكروا الفخر إنكم ... متى تذكروه تكذبوا وتحمّقوا
بعيدات بين خيركم لصديقكم ... وشركم يغدو عليه ويطرق
متى تسئلوا فضلا تضنوا وتبخلوا ... ونيرانكم بالشر فيها تحرّق
إذا أسبقت يوماً قريش خرجتم ... بنى أسد سكتا وذو المجد يسبق
تجيئون خلف القوم سودا وجوهكم ... إذا ماقريش للأضاميم أصفقوا
وماذاك إلا أن للؤم طابعـاً ... ياوح عليكم وسمه ليس يخلق[2]

وكان عبد الله بن الحجاج الثعلبى إثر سقوط النجدات الذين خرج معهم قد لاذ بابن الزبير وصار من شيعته وخاصته ، وقد ظل إلى جانبه طوال مدة خلافته ، ولكننا لا نعرف أنه قال فى الانتصار له ولمذهبه بيتاً واحدا من الشعر

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ٥٩
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ٦٠

فلما انتهى إلى عبد الملك بن مروان بعد أن قتل عبد الله بن الزبير ، أنشده شعرا يقارن فيه بين بنى أمية وآل الزبير مظهرا بعد البون بينهما فقال :

ولقد وطئت بنى سعيد وطـأة ... وابن الزبير فعرشه متضعضع
مازلت تضرب منكباً عن منكب ... تعلو ويسفل غيركم مايرفع
ووطئتهم فى الحرب حتى أصبحوا ... حدثا يؤس وغابرا يتجعجع
لا يستوى خاوى نجوم آفـل ... والبدر منبلجاً إذا ما يطلع
وضعت أمية واسطين لقومهم ... ووضعت وسطهم فنعم الموضع
بيت أبو العاصى بناه بربوة ... عالى المشارف عزه ما يدفع
ضاقت ثياب الملبسين وفضلهم ... عنى فألبسنى فثوبك أوسع

فرمى عبد الملك إليه بمطرفه ، وقال له : ألبسه ، فلبسه ودعاه إلى خوانه وأمنه[1] وهكذا كان البون شاسعاً بين ابن الزبير والأمويين فى تقدير الشعراء وليس شك فى أن ابن الزبير قد خسر كثيراً بسبب هذه النظرة القاصرة إلى دور الشعر فى الترويج لمذهبه متأثرا فى نظرته هذه ببخله وشحه وكزازته .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فى انصراف الشعراء عنه ولكن هناك أسباب أخرى منها أنه وقع فيما وقع فيه الأمويون . وفشل فيما نجح فيه رجل كالمختار الثقفى ، وذلك أنه لم يرفق بآل البيت ولم يرع مكانتهم فى نفوس الناس فحبس ابن الحنفية وأبعده وأعطى المختار فرصة استنقاذه من بين يديه ليتخذ من هذه الحادثة سبيلا إلى قلوب الشيعة والمسلمين جميعاً وكانت نتيجة ذلك أن ابن الزبير استهدف لهجوم شديد من شعراء الشيعة من مثل كثيّر الذى ندد بصنيعه وادعائه بأنه عائذ بالبيت ولكنه فى الحقيقة ظالم لهذا الشيخ المرتاع فى سجن عارم بينما الحمام آمن بجنبات البيت حيث ينبغى أن يكون العدو كالصديق المسالم حرمة وأمنا ، يقول كثير :

من يرهذا الشيخ بالخيف من منى ... من الناس يعلم أنه غير ظالم
بحيث الحمام آمن الروع ساكن ... وحيث العدو كالصديق المسالم

---

(١) الاغانى جـ ١٢ ص ٢٦ .

تخبر من لاقيت أنك عائـــذ بل العائذ المظلوم فى سجن عارم[١]

وحقـًّا كان صنيع ابن الزبير سقطة لم يتجنبها بل زلة كما قال كثير :

وكيف ذكرت حال أبى خبيب وزلـــة فعله عند السؤال[٢]

ولم ينج من إيذائه عبد الله بن عباس وأخوه عبيدالله فقد نفس عليهما مكانتهما بين الناس والتفافهم من حول عبدالله يفقههم فى الدين والتفافهم من حول عبيد الله يطعمهم ويرفدهم وقد أحفظ ذلك عبدالله بن الزبير وخشى ألا يبقى له شيء من حب الناس فأغرى بهما صاحب شرطته مما جعله يستهدف لنبال شاعر شيعى كأبى الطفيل الذى تلومه وعنف به فى قوله :

لا درّ درّ الليالى كيف تضحكنا منها خطوب أعاجيب وتبكينا

ومثل ما تحدث الأيام من غـُير يا ابن الزبير عن الدنيا تسلينا

كنا نجى ابن عباس فيقبسنا علماً ويكسبنا أجرا ويهدينا

ولا يزال عبيدالله مترعـــــة جفانه مطعماً ضيفاً ومسكينا

فالبر والدين والدنيا بدارهمـــا ننال منها الذى نبغى إذا شينا

ثم يمضى فيقارن بين ابن الزبير وآل هاشم فيقول :

ولست فاعلمه أولى منهمو رحما يا ابن الزبير ولا أولى به دينا

ففيم تمنعهم عنا وتمنعنـــــا عنهم وتؤذيهم فينا وتؤذينـــا

لن يؤتى الله من أخزى ببغضهم فى الدين عزا ولا فى الأرض تمكينا[٣]

فبنو هاشم أقرب إلى النبى من آل الزبير وأولى بالحق منهم لقرب رحمهم من الرسول ولإخلاصهم فى الدين ، وابن الزبير لإيمانه بهذا يحول بينهم وبين الناس ، وأن الله سيخزى كل من أبغضهم ولن يمكن له فى الأرض .

لكل هذا ازورّ الشعراء عن ابن الزبير ، لأنهم لم يجدوا لديه ما كانوا يجدونه فى قصور بنى أمية من تدفق العطاء والتقدير اللائق بألسنة الدعاء فانصرفوا عنه إلى خصومه ولم يكتفوا بذلك وإنما نددوا به وبشحه ،

(١) الأغانى جـ ٨ ٣١

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢

(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ١٦١

واستنكروا سيادة مثله من البخلاء ، وقارنوا بينه وبين أعدائه وتحسروا على كرمهم الفياض وتباروا فى التمكين لهم بكل لسان .

وكذلك ندد به شعراء الشيعة وهم يرونه لا يرفق بآل البيت الذين كان يتباكى عليهم قبل أن يؤول إليه السلطان .

ومن ثم كان شعراء آل الزبير قليلين بصورة ملحوظة وكانوا أحد رجلين إما شاعر آمن بقلبه إيماناً لا ينزعزع بصحة مادعوا إليه ورأى فيه أمالا من آمال قومه وإما شاعر منتجع اشترى كرمهم النادر بأبيات نادرة وعاج بعدها عنهم ولم يعد إليهم مرة أخرى .

٢

وقد دفعت الظروف ببعض الشعراء إلى ابن الزبير ، فانتجعوه ومدحوه وأشادوا بعدله وبره وصوره أحدهم فى صورة الصديق وابن الخطاب وعثمان فى سيرتهم حتى ارتاح المعدمون وعمّ الناس العدل على سواء واستحال الظلام الحالك صباحاً أبلج وتنتهى الأبيات بطلب العون والعطاء دفعاً للحاجة الملحة ، هكذا :

حكيت لنا الصديق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس فى العدل فاستو ... وا فعاد صباحاً حالك اللون مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى ... دجى الليل جواب الفلاة عثمثم
لتجبر منه جانباً زعزعت بـــه ... صروف الليالى والزمان المصمم[(١)]

وأبو ليلى هذا هو النابغة الجعدى ، وقصة وفادته على ابن الزبير تذكر أنه لجأ إليه لما أقحمته السنة فدخل عليه المسجد الحرام فأنشده هذه الأبيات فقال له ابن الزبير « هوّن عليك يا أبا ليلى فإن الشعر أهون وسائلك عندنا ، أما صفوة مالنا فلآل الزبير ، وأما عفوته فإن بنى أسد بن عبد العزى تشغلها عنك وتيما معها ، ولكن لك فى مال الله حقان حق برؤيتك رسول الله صلى الله

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٣٧ .

عليه وسلم وحق بشركتك أهل الإسلام فى فيئهم » ، ثم أخذه بيده فدخل بيت النعم فأعطاه قلائص سبعا وجملا رجيلا ، وأوقر له الإبل برًّا وتمرا وثيابا فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحب صرفاً ، فقال ابن الزبير « ويح أبى ليلى لقد بلغ به الجهد» . فقال النابغة : «أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما وليت قريش فعدلت واسترحمت فرحمت وحدثت فصدقت ووعدت خيرا فأنجزت فأنا والنبيون فراط لها ضمن »[1] .

وابن الزبير لم يعط النابغة لأنه شاعر ، فالشعر كما قال أهون وسائله عنده وإنما أعطاه لصحبته ولجهاده ، وكان يمكن أن يكسب ابن الزبير كثيرا لو سار مضمون الحديث الذى ذكره لابن الزبير فى أشعاره وعرف طريقة إلى الناس .

وكذلك تلقانا أبيات أخرى لشاعر آخر يدعى أبو وجزة السعدى يمدح فيها آل الزبير ويعرّض بإبراهيم بن هشام المخزومى ويذكر أبو الفرج — فى شأن هذه الأبيات — أن أبا وجزة خرج لمديح آل الزبير فسأل أبا زيد الأسلمى ، وكان فى طريقه ، لمديح إبراهيم بن هشام هذا أن يتشاركا فيما يصيبان من العطاء فأبى أبو زيد معتدًّا بأن رجاءه فى إبراهيم أعظم من رجاء أبى وجزة فى آل الزبير وقدما المدينة فأتى أبو زيد دار إبراهيم فدخلها وأنشد وصاح وجلب ، فدعا إبراهيم بعض خاصته لإخراج هذا الأعرابى الجلف وضربه ففعلوا به ذلك وأتى أبو وجزة أصحابه فمدحهم وأنشدهم فكتبوا له إلى مال لهم بالفرع أن يعطى ستون وسقا من التمر فقال أبو وجزة تلك الأبيات التى أشرنا إليها معرضاً بصنيع إبراهيم بن هشام المخزومى بأبى زيد الأسلمى فقال :

راحت قلوصى رواحاوهى حامدة ... آل الزبير ولم تعدل بهم أحدا
راحت بستين وسقا فى حقيبتها ... ماحملت حملها الأدنى ولا السددا
ما إن رأيت قلوصاً قبلها حملت ... ستين وسقا ولاجابت بها بلدا
ذاك القرى لا كأقوام عهدتهم ... يقرون ضيفهم الملوية الجددا[2]

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٣٧ .
(٢) الأغانى جـ ١١ ص ٧٧

وهو يشير فى البيت الأخير إلى السياط التى نالها أبو زيد من خاصة إبراهيم، وتذكر الرواية أن الناقة لا تحمل ستين وسقا ولا تطيقها وأنه إنما يعنى انصرافه بالكتاب الذى كتب له فى حقيبتها ، وقد ذكر بعض الدارسين المحدثين أن هذه الأبيات قيلت فى مديح عبدالله بن الزبير ، والتعريض بإبراهيم بن هشام والى المدينة لهشام بن عبدالملك[1] وهو وهم لاريب فيه ، فلا يستقيم أن يكون عبد الله بن الزبير معاصرا لهشام بن عبد الملك فقد قتل عام ٧٣ هـ بينما ولى هشام الخلافة عام ١٠٥ هـ . وحقيقة الأمر أن الأبيات قيلت فى ابن أخيه عبدالله ابن عروة بن الزبير فقد عمّر أبو وجزة حتى سنة ١٣٠ هـ[2] ولزم فى أخريات أيامه عبدالله بن عروة هذا ، فكان يفضل عليه ويقوم بأمره إلى أن بلغه أن أبا وجزة أتى عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على مادحاً فأطرحه وأمسك يده عنه ، ولم يزل أبو وجزة يمدح آل الزبير ولا يرجع له عبد الله بن عروة إلى ماكانا عليه ولا يرضى حتى قال :

آل الزبـــير بنوحـــرة ... مروا بالسيوف صدورا خنافا
سل الجرد عنهم وأيامهـــا ... إذا امتعطوا المرهفات الحقافا
يمزترن والقتـــل داء لهـــم ... ويصلون يوم السياف السيافا
إذا فرج القتل عن عيصهم ... أبى ذلك العيص إلا التفافـــا
مطاعيم تحمـــد أبياتهـــم ... إذا قنع الشاهقات الطحافـــا
وأجبن من صافـــر كلبهـــم ... إذا قرعته حصاة أصافـــا[3]

وحينئذ رضى عنه عبدالله بن عروة وعاد إلى ماكان عليه ، وهكذا لم يمدح النابغة ابن الزبير إلا ممحلا ، وهو لم يعطه شاعرا ، ولم يمدح أبو وجزة عبد الله وإنما مدح ابن أخيه عروة بعد زوال خلافة الزبيريين بزمن بعيد .

ومعنى هذا هو ما سبق أن قلناه من أن ابن الزبير قد انصرف عن الشعراء

---

(١) أحمد الحوفى أدب السياسة ص ٢١١
(٢) الأغانى جـ ١١ ص ٧٧
(٣) الأغانى جـ ١١ ص ٨١

وإن كان بعضهم لم ينصرف عنه انتجاعا لما بين يديه ، ويبدو من رواية أبي الفرج بشأن أبي وجزة تشكك أبي زيد الأسلمي في كرم آل الزبير ، والحقيقة أنه على الرغم من الثروات الطائلة التي خلفها لهم الزبير فقد عرفوا بالشح حتى ليروى أنه ما رؤى في الناس أبخل منهم ولا من عبد الله خاصة وأنه لم يكن فيهم جواد غير مصعب[1] .

وقد كان مصعب فتى من فتيان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولى العراق لأخيه انهلت غيوثه على الشعراء فمدحه منهم كثيرون مثل أعشى همدان ودكين الفقيمي وعبد الله بن الزبير الأسدي وسراقة بن مرداس البارقي والمتوكل الليثي وغيرهم ، ولكنه مديح لا شأن له بالدعاء للفكرة الزبيرية بحيث لا يصدق عليه أنه شعر سياسي ملتزم بمذهب معين فهو ثناء في مقابل العطاء .

وقد يعجب شاعر بمصعب إعجاباً مجرداً عن الرغبة في ماله ومنصباً على شخصه فتى من فتيان العرب الطامحين الأسخياء .

ومصعب في هذا تختلف صورته عن أخيه تمام الاختلاف من حيث تقديره للشعر والشعراء ومالهما من القدرة على مساندة الدعرات السياسية ، وقد نرى شاعرا واحدا تختلف نظرته إلى عبدالله وإلى أخيه مصعب ، فقد مر بنا كيف هجا أبو العباس الأعمى الشاعر الأموي عبدالله وعرّض بشحه وكزازته ولكنه لم يستطع إلا أن يمدح مصعباً وأن يرثيه بعد مقتله ، ولم يجبن عن أن ينشد هذا الرثاء أمام عبد الملك بن مروان لما استنشده قائلا : إنما رثيته بذلك لأنه كان صديقي ، وقد علمت أن هواي أمري ، فقال عبدالملك : صدقت ولكن أنشدني ما قلته فأنشده :

يرحم الله مصعبا فلقـــد ما ت كريماً ورام أمرا جسيما[2]

وكثيراً ما كان مصعب يسترضي الشعراء من خصومه وكأنه يحاول حملهم على أن يتنكبوا طريقهم إلى طريقه ، وكان ينجح في ذلك إلى حد بعيد كما

---

(١) الأغاني جـ ١٣ ص ١٠١

(٢) الأغاني جـ ١٥ ص ٥٨

فعل مع عبد الله بن الزّبير الأسدى وهو أموى الهوى متعصب لبنى أمية منتصر لهم على عدوهم ، وكان مصعب قد هدم دار أسماء بن خارجة وحرقها لما هرب إلى الشام وكان أسماء من رجال الأمويين ، فلما وقع عبدالله بن الزّبير أسيرا فى يد مصعب ذكّره ببعض أبياته فى القصيدة التى استنكر فيها هدم دار أسماء ، وقال له : إيه يابن الزّبير أنت القائل :

إلى رجب السبعين أو ذاك قبله تصبحكم حمر المنايا وسودها

ثمانون ألفاً نصر مروان دينهم كتائب فيها جبرئيل يقودها[1]

فقال : « أنا القائل كذلك ، وإن الحقير ليأبى المعذرة ولو قدرت على جحده لجحدته فاصنع ما أنت صانع » فقال مصعب : « أما أنى ما أصنع بك إلا خيرا ، أحسن إليك قوم فأحببتهم ووالتهم ومدحتهم » ثم أمر له بجائزة وكسوة ورده إلى منزله مكرما ، فكان عبدالله بن الزّبير بعد ذلك يمدحه ويشيد بذكره حتى قتل فعنى بالبحث عن قاتله ، وهو عبيدالله بن ظبيان واستقبله بقوله :

أبا مطر شلّت يمين تقرعت بسيفك رأس ابن الحوارى مصعب[2]

فقال ابن ظبيان : فكيف النجاة من ذلك ؟ قال ابن الزبير : لا نجاة هيهات سبق السيف العذل ، وقد ظل ابن ظبيان بعد أن كشف ابن الزبير أمره لا ينتفع بنفسه فى نومه ولا يقظته ويهول عليه فى منامه فلا ينام حتى كل جسمه ونهك ، ولم يزل كذلك حتى مات[3] .

وعلى غرار مصعب كان ابن أخيه حمزة بن عبد الله بن الزبير سخاء وكرماً بلغا حد الإفراط والسرف مما جذب إليه الشعراء ، كما مر وبخاصة موسى شهوات الذى مدحه مدائح كثيرة تنم عن جوده الفياض من مثل قوله :

حمزة المبتاع بالمال الثنـــا ويرى فى بيعه أن قد غبن

فهو إن أعطى عطاء فاضلا ذا إخاء لم يكدّره بمـن

(١، ٢، ٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٣٦

وإذا ما سنة مجحفة ... برت الناس كبرى بالسفن
حسرت عنه نقيا عرضه ... ذا بلاء عند مخناها حسن
نور صدق بيّن فى وجهه ... لم يدنس ثوبه لون الدرن
كنت للناس ربيعا مغدقا ... ساقط الأكناف إن راح ارجحن[1]

وكان حمزة معنيًّا بتقريب الشعراء واجتذابهم نحوه بإغداق الأموال عليهم وبخاصة شاعر الزبيريين ابن قيس الرقيات ، فلم تكن مكانة أحد من الشعراء تدانى مكانته لديهم ، ويذكر أبو الفرج أن ابن قيس استأذن عليه ذات يوم فقالت له الجارية : ليس عليه إذن الآن ، فقال ابن قيس: أما أنه لو علم بمكانى ما احتجب عنى ،فلما دخلت الجارية على حمزة وأخبرته قال : ينبغى أن يكون هذا ابن قيس ائذنى له فأذنت له ، فقال حمزة: « مرحباً بك يا ابن قيس هل من حاجة نزعت بك » قال : نعم زوجت بنين لى ثلاثة ببنات أخ لى ثلاث ، وزوجت ثلاثة من بنى أخ لى بثلاث بنات لى ، قال حمزة : فلبنيك الثلاثة أربعمائة دينار ، أربعمائة دينار ، ولبنى أخيك الثلاثة أربعمائة دينار ، أربعمائة دينار ، ولبناتك الثلاث ثلثمائة دينار ، ثلثمائة دينار ، ولبنات أخيك الثلاث ثلثمائة دينار ، ثلثمائة دينار ، فهل بقيت لك من حاجة يا ابن قيس ؟ قال : لا والله إلا مؤنة السفر ، فأمر له بما يصلحه لسفره حتى رقاع خفاف الإبل[2] .

وغير مصعب وحمزة لانجد أحدا من آل الزبير يجذب الشعراء أو يجزل لهم العطاء غير عمرو بن الزبير الذى لزمه عبدالله بن الزّبير الأسدى ، وكان صديقاً له وخلاًّ ونديما ،وقد رثاه رثاء حارًّا ندد فيه بأخيه عبدالله بن الزبير لقتله إياه تحت السياط ، وأمر بألا يجهّز أو يغسّل أو يدفن فى مقابر المسلمين[3] .

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١١٧
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٣
(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ٨

وكان إبراهيم بن الأشتر النخعى قائد مصعب من الفتيان الممدَّحين ، وقد منح عبدالله ابن الزَّبير الأسدى عشرين ألف درهم ، وكان الشاعر نفسه قد استوهبه ألفاً واحدة ، بعد أن مدحه بقوله :

الله أعطاك المهـابة والتقى ... وأحل بيتك فى العديد الأكثر
وأقر عينك يوم وقعة خازر ... والخيل تعثر بالقنا المتكسر
إنى مدحتك إذ نبا بى منزلى ... وذممت إخوان الغنى من معشرى
وعرفت أنك لا تخيّب مدحتى ... ومتى أكن لسبيل خير أشكر
فهلمّ نحوى من يمينك نفحـة ... إن الزمان ألح يا بن الأشتر[1]

وقد دار حول مصعب شعر كثير يذهب كله فى المديح ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمنا ، وإنما الذى يهمنا ذلك الشعر الذى لم يستهدف به أصحابه كسباً ولا منفعة خاصة وإنما يتجه فيه الشعراء إلى الدفاع عن نظرية الزبيريين فى الخلافة والهجوم على خصومهم ، وتأليب القبائل عليهم .

ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه عبيدالله بن قيس الرقيات شاعر الزبيريين الذى التزم بدافع من إيمانه المخلص بأفكارهم والدفاع عن نظريتهم التزاما تامًّا دون مدافع .

٣

وقد اختلف الرواة فى اسم ابن قيس[2] أهو عبيدالله أم عبدالله ، ولكن الراجح أنه عبيد الله ، وعبد الله أخوه ، وأبوه قيس بن شريح ، وينتهى نسبه إلى لؤى بن غالب ، كما ينتهى نسب أمه قتيلة بنت وهب إلى عبد مناة بن

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٤٧ .

(٢) انظر فى ترجمته الأغانى (الساسى) جـ ٤ ص ١٥٤ وما بعدها ، والشعر والشعراء جـ ١ ص ٥٢٣ وطبقات الشعراء ص ٥٣٠ وخزانة الأدب جـ ٣ ص ٢٦٥ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغنى ص ٢١١ والشعر الغنائى فى مكة ص ٢٠٤ ومابعدها وحديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٤٩ وله ديوان نشره رود كناكس فى فينا ١٩٠٢ ، وحققه محمد يوسف نجم .

كنانة ، فهو إذن قرشى الأب والأم .

وكما اختلفوا فى اسمه ، اختلفوا أيضاً فى سبب نعته بالرقيّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبب بثلاث نسوة سمين جميعاً رقيّة فنعت بالرقيّات إشارة إلى ذلك .

وقد ولد عبيد الله فى مكة فى أوائل العقد الثانى للهجرة لأنه عندما أمّنه عبدالملك ورفض أن يفرض له ، سأله عبدالله بن جعفر أن يعمر نفسه ليأمر له بعطاء ، فقال إن عمره آنذاك ستون سنة[١] وهو تحديد تقريبى لأننا نشك أنه توخى الدقة فى تعميره لنفسه فقارب بزيادة أو بنقصان ، وأما وفاته فكانت سنة ٨٠هـ إذا صحت الرواية التى تزعم أنه مات فى السنة الخامسة عشرة لولاية عبد العزيز بن مروان لمصر[٢] .

وأول ما نعرف من أخباره يفيد ملازمته لبعض المغنين ، وولعه بالتحبب إلى الحسان فى الحج ، وقد تعلق برقية بنت عبد الواحد بن سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا إلى الجزيرة ، وسرعان ماأخذ ينظم فيها أشعاره ، ويبدو أنه لتعلقه بالمغنين والمغنيات تحول عن مكة إلى المدينة ، ويذكر صاحب الأغانى أخبارا له مع سائب خاثر وبديح وفند وهم من مغنى المدينة المشهورين[٣] .

ويبدو أنه نزل المدينة مع نفر من عشيرته فيهم أخوه عبد الله ، ونراه يذكر فى بعض أشعاره دارا له بها[٤] ويبدو من أخباره المبكرة فى المدينة أنه كان يحيا حياة ملؤها اللهو والعبث ، ونراه يضيق بمروان بن الحكم الذى كان معاوية يعقب بينه وبين سعيد بن العاص فى حكمها ، وكانت فى مروان

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٧

(٢) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٧١

(٣) انظر الأغانى جـ ٤ ص ١٥٨ ، جـ ١١ ص ٤٧

(٤) الديوان ص ٢٤

غلظة وشدة جعلتاه يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد ، ولم يكن صاحب شرطته مصعب بن عبدالرحمن بن عوف الزهرى بأقل منه غلظة وشدة فقد رأى أنه لا يستطيع أن يضبط المدينة بحرسها فسأل مروان أن يمده بمائتى رجل من أهل أيلة فضبطها ضبطاً شديدا[١] .

وقد تعرض ابن قيس الرقيات لشدة مصعب ووصف غلظته وقسوته فى أبيات هى أول ما نعرف له من الشعر ، منها قوله :

منع اللهـــو والهـــوى وسرى الليـــل مصعـــب
وسياط على أكـــــــــف رجال تقلـــب[٢]

وإلى هذا الطور من حياته يرجع نظم مقطوعاته فى الغزل ليترنم بها المغنون والمغنيات ويبدو أنه أراد أن ينأى بنفسه عن أحداث المدينة فى الفترة التى ثارت فيها على يزيد بن معاوية فرحل إلى الجزيرة حيث عاش حياة مليئة باللهو والدعة والفراغ وقد صور هذه الفترة فى قوله مخاطبا نفسه :

أتلبث فى تكريت لا فى عشيرة شهود ولا السلطان منك قريب
وأنت امرؤ للحزم عندك منزل وللدين والإسلام منك نصيب[٣]

وفى الجزيرة واتته أنباء الحيرة ، ومقتل طائفة من أهل بيته ، بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبدالله فهزته تلك الأنباء المفجعة فإذا هو يبكى قتلى الحرة من أهله بكاء حارًّا يمور بالثورة والتحريض على يزيد وبنى أمية من مثل قوله :

والله أبرح فى مقدمـــة أهدى الجيوش على شكتيّه
حتى أفجّعهم بإخوتهـــم وأسوق نسوتهم بنسوتيّـــه[٤]

وقد اضطربت حياة ابن قيس اضطراباً شديداً بعد هذه الفترة ، وتأثرت

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٥
(٢) الديوان ص ١٧٧ ، الأغانى جـ ٤ ص ١٥٥
(٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٢
(٤) الديوان ص ١٨٩ .

إلى حد بعيد بما ثار بين قيس وتغلب من حروب نتج عنها اصطدام عشيرته بعمير بن الحباب أحد زعماء قيس فى بعض غاراته مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق بعد أن تولى مصعب ناصية الأمور فيه ، وكان طبيعيًّا أن يلوذ بمصعب وأن يركن إليه وهو أشد ما يكون حنقاً على بنى أمية منذ كانت وقعة الحرة ، وجعله ذلك يميل إلى عقيدة الزبيريين والإخلاص لها أشد ما يكون الإخلاص وقد وجد فى نظريتهم فى الخلافة مايرضى نفسه الموتورة من بنى أمية وحلفائهم من القبائل اليمنية الذين هتكوا حرمة الأماكن المقدسة وفتكوا بأهل الحجاز فتكا ذريعا ، فرسخ فى موطن الاعتقاد منه أن الخلافة لابد أن تكون فى قريش روحاً وواقعاً عمليًّا بحيث تكون قصبتها فى الحجاز وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كلب وأخواتها .

وليس شك فى أنه يصدر فى هذا الاعتقاد عن قرشيته من جهة وعن وتره من بنى أمية وأهل الشام فى الحرة من جهة ثانية ، ولهذا كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً مندفعاً يشوبه حقد شديد على الأمويين وتدفعه رغبة ملحة فى نقض حكمهم نقضا ، ويجدر بنا أن نلاحظ أنه على الرغم من التزام ابن قيس بنظرية الزبيريين فإنه لم يقف عند حدود نظرتهم الضيقة وكان بلاشك أوسع منهم أفقاً كما كان أوسع من بنى أمية ومن بنى هاشم أيضاً .

فنظرة ابن قيس تمتد حتى تشمل المضريين جميعاً ، فنراه يعتز بهم وبوطنهم الأصلى وهو إن كان يعتقد بضرورة كون الخلافة فى قريش فما ذلك إلا لأنها سنام مجد مضر ، وذورة شاهقة من ذرا عظمتها وفخارها ، فعلى المضريين جميعاً أن يجتمعوا حول قريش صاحبة الحق الأول فى الخلافة ، وعلى قريش أن تتشبث بهذا الحق وأن تقيم بوحدتها سياجاً عالياً حوله وأن تتجنب الفرقة التى قسمتها فرقاً وشيعاً وأحزاباً ، وابن قيس معنى أشد العناية وحريص أشد الحرص على وحدة قريش ذات المجد التليد منذ الجاهلية ، والطريف بظهور الإسلام ، فكان عبيد الله بن قيس بذلك شاعر قريش ، ويجمع وجوه قريش

وأشراف العرب على ذلك وعلى أنه لا ينازعه هذا اللقب أحد من الشعراء فى الإسلام[١]

وقد راح يشيد بقريش وباحتوائها دولة الإسلام وقيامها فيها ، وكما فخر بقريش أخذ يبكى أيام وحدتها ويستشعر العوادى التى يخاف منها عليها ويدعوها إلى لم شعثها قبل شماتة أعدائها ، ولعل خير ما يصور عقيدته الزبيرية همزيته التى يفتتحها بقوله :

أقفرت بعد عبد شمس كداء فكدى فالركن فالبطحـــاء[٢]

وأطال بعد ذلك فى ذكر الأماكن التى تركها القرشيون وخلفوها وراء ظهورهم مؤثرين عليها ربوع الشام ، كما نوه برجالهم ونسائهم الحسان ، ناعياً هذا المصير الذى آلت إليه قريش بتفرق أبنائها شيعاً وبلدانا حتى طمع فيها الطامعون :

حبذا العيش حين قومى جميـــ ـــع لم نفرق أمورها الأهـــواء
قبل أن تطمع القبائـــل فى ما لك قريش وتشمت الأعداء

ويمضى فيعارض أعداء فكرته من الخوارج دعاة التسوية مؤكدا أن قريشا عماد الخلافة وأنها لو زالت لسقط ركنها سقوطاً لا تقوم لها بعده قائمة :

أيهـــا المشتهى فناء قـــريش بيد الله عمـــرها والفنـــاء
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدها لحى بقاء

وكذلك يتوجه بالخطاب إلى عبد الملك هازئاً بما يتمناه من فناء سلطانها ساخرا من غيظه الذى يكاد يؤدى به بقوله :

قد عمـــرنا فمت بدائك غيظا لا تميتن غيرك الأدواء

ثم يمضى فى الفخر بقريش وبفضلها على الإسلام والخلافة فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وعمه حمزة وجعفر الطيار والزبير ابن العوام حوارى الرسول وأبا عبد الله ومصعب ، ويشيد بانتصار مصعب على

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٤
(٢) الديوان ص ١٨٢

المختار الثقفى معرضاً بمخاريقه وأساطيره لينتهى إلى مدح مصعب مدحاً مصطبغا بصبغ دينى رائع فيقول :

إنما مصعب شهاب من الـ ـله تجلت عن وجـه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جـبروت ولا به كبرياء(١)

وكأنه يعرض بملك بنى أمية الذى يقوم على القهر والتسلط والطغيان ، ويعود بعد ذلك إلى الافتخار بقريش وبرجالها فى الجاهلية والإسلام منوهاً ببيتها الحرام ، حزيناً لما أصابه على أيدى جيوش الشام ومشيدا ببناء ابن الزبير له بعد ذلك ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة إلى الثورة ببنى أمية الذين استنصروا باليمنيين وقتلوا الحسين بن على فهدموا بذلك باذخا من صروح قريش ، وهم لكل هذا عداته الألداء ولا شفاء لنفسه إلا بقتلهم .

وعلى هذه الصورة كان ابن قيس الرقيات يعبر عن اعتقاده السياسى وكان يضيف إلى ذلك مديحاً لعبد الله بن الزبير صاحب الدعوة الذى يمثل فى نظر الفكرة الزبيرية أمل قريش فى الرفعة والسلطان ، لأنه أجدر قريش بالخلافة ، ولكنه مديح قليل جداً حتى لا يكاد يزيد على قصيدة واحدة قصيرة للمدح منها بيتان اثنان هما قوله :

وابن أسماء خير من مسح الر كن فعالا وخيرهم بنيانا
وإذا قيل من هجان قريش كنت أنت الفتى وأنت الهجانا(٢)

ولا نجد لذلك سبباً إلا ما نعرفه من ازورار عبدالله عن الشعراء وما كان من بخله وحرصه الشديد ، ويؤكد هذا أن لابن قيس الرقيات فى مدح مصعب ورثائه قصائد متعددة وحارة العاطفة تنم عن إخلاص الشاعر وولائه له .

وكان ابن قيس لا يزال يذكر فى شعره أسفه لوقعة الحرّة مضيفاً إليه أساه لوقعة مرج راهط التى هزم فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية

---

(١) نفس المرجع
(٢) الديوان ص ١٨٩

متوعدا عبد الملك بالثأر، مشيدا بمصعب وبشجاعته وتقواه وكرمه ، وكان قد رأى أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لج الهجاء بينه وبين يزيد ابن معاوية لجأ إلى الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى إغاظته والكيد له ، فحاكاه مصطنعاً التغزل بعاتكة زوج عبدالملك وبأم البنين زوج ابنه الوليد ، وهو بلاشك غزل سياسى للغاية ، وفضلا عن أنه كان يسوقه فى مقدمة مدائحه لمصعب فإنه كان يحرص على أن يعرضهما فى صورة تؤذيهما وتؤذى فيهما بنى أمية جميعاً ، من مثل قوله فى عاتكة :

بدت لى فى أترابها فقتلنى كذلك يقتلن الرجال كذالكا
وقالت لو أنا نستطيع لزاركم طبيبان منا عالمان بدائكا[1]

وقد مر بنا كيف عبث بعبد الملك وبالوليد حينما تخيل أم البنين وقد جاءته فى الحلم فنال منها ما أراد ، وفى نفس الوقت كان ابن قيس يشبب بزوجتى مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، ولكنه كان تشبيباً يحف به الوقار وكأنه أزهار ثناء يهديها إلى مصعب ، وكأنه قصد بذلك أيضاً إلى أن يقرن الناس الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض ليظهر لهم إزراؤه على بنى أمية وعبثه بهم ظهورا بينا ، وليس شك فى أن الصورتين مختلفتان إلى حد التناقض الذى يكشف عن مدى خبثه ومكره ونجاحه فى اتخاذ الغزل أداة لشعره السياسى ومن قوله فى عائشة وكان رسول مصعب إليها وهى غاضبة عليه :

جنيّـــة برزت لتقتلـنى مطلية الأصداع بالمسك
عجباً لمثلك لا يكون لـــه خرج العراق ومنبر الملك
ترمى لتقتلنى بأسهمهـــا ونزنها بالحلم والنسك[2]

وابن قيس فى هذه الأبيات إنما يبرزها فى صورة النسك والطهارة والجلال والعفاف وليس فى صورة مبتذلة كالتى ظهرت فيها أم البنين فى شعره ، وهو

---

(١) الديوان ص ١٥٩ .
(٢) الديوان ص ١٤٧

إمعان فى إغاظة الأمويين وإرضاء الزبيريين ، وعلى وجه خاص مصعب بن الزبير الذى أخلص له إخلاصاً نادرا تتحدث عنه الروايات حديثاً تتضوع فى أكنافه أزاهير الوفاء والحب الذى يدفع به إلى أن يخرج معه للقاء عبد الملك غير ضنين بنفسه فى سبيل فكرته وقائده ، ويدفع مصعباً إلى أن يدعو شاعره وقد رأى بوادر الغدر به وبجيشه وأيقن بأنه مقتول لا محالة فيجهزه بالمال والعدة ويتوسل إليه أن ينطلق بحياته إلى حيث يشاء . ولكن الشاعر المخلص يقسم ألا يريم حتى يرى سبيل قائده فيقيم معه حتى يقتل بعينه ، وحينئذ ساغ له أن ينطلق كاسفاً حزيناً إلى الكوفة فيمضى إلى أول بيت يصير إليه فيدخله طلباً للأمان ، وقد كان هذا البيت لامرأة من الأنصار تسمى كثيّرة تعيش مع ابنتيها الجميلتين ، ويبدو أنها كانت زوج على بن عبد الله بن العباس[1] وقد كان ممن يجيرون على عبد الملك بن مروان ، وقد قامت كثيّرة على ما يحتاج إليه ابن قيس من الطعام والشراب والراحة خير قيام ، تغدو عليه فى كل صباح فتسأله عما يريد دون أن تسأله من يكون ؟ ودون أن يسألها من تكون ؟ وهو أثناء ذلك كله يسمع الصياح بطلبه والجعل المفروض لمن يدل عليه ، وقد أقام ابن قيس على ذلك النحو قرابة الحول ، حتى فقد الصياح بطلبه واشتاق الشخوص إلى أهله فأنبأ مضيفته بذلك فوعدت بتحقيق رغبته . ولما كان المساء أعدت له راحلتين عليهما ما يحتاج إليه ومعهما عبد وأعطت العبد نفقة الطريق ، وقالت لابن قيس وهى تودعه « العبد والراحلتان لك » ، ومضى ابن قيس ومعه العبد حتى بلغا مكة ووجد ابن قيس أهله يبكون ويولولون إشفاقاً عليه وخوفاً من أن يناله طالبوه الذين ما فتئوا يبحثون عنه فأقام معهم حتى أسحر ثم انطلق إلى المدينة حتى أتى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب متنكراً ، وجعل يتعاجم ليموّه على الحاضرين حتى خلا له مجلس ابن جعفر فكشف له عن وجهه وعاذ به فوعده ابن جعفر بأن يكتب فى شأنه إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وزوج الوليد بن عبد الملك بما لها من حظوة عند الخليفة وكتب عبدالله إلى أم

---

(١) انظر وفيات الأعيان ص ٢١٤ .

البنين يسألها أن تشفع له عند عمها ، وكتب إلى أبيها بذلك أيضاً ، وتمضى الرواية وهى زبيرية السند عن عبد الله بن البصير البربرى مولى قيس بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن ابن قيس نفسه فتذكر أن عبدالملك دخل على أم البنين فسألها هل من حاجة ؟ كما كان يفعل ، فذكرت أن لها حاجة وتمنت عليه أن يقضيها ، وكأن الرواية تقصد أن تضخم من شأن ابن قيس وخطره فتذكر أن عبد الملك وعدها بتحقيق كل حاجة لها إلا أن تكون ابن قيس الرقيات ولكنها تطلب منه أن لا يستثنى عليها شيئاً ، وكأن الرواية تحاول أيضاً أن تبرر ما سينتهى إليه عبد الملك من إجابتها إلى طلبها فتذكر أن عبد الملك حين سمع ذلك نفخ بيده فأصاب خدها فوضعت يدها على خدها ، وحينئذ قال لها عبدالملك وكان أرق شيء عليها : ارفعى يدك يا ابنتى فقد قضيت كل حاجة لك وإن كانت ابن قيس الرقيات ، فطلبت إليه أن يؤمنه وضمت إلى شفاعتها شفاعة أبيها الذى سألها أن تسأل عبد الملك ذلك فأمنه وأذن له فى أن يحضر مجلسه فى عشية اليوم وقد شهد ابن قيس المجلس ، وحضر الناس فأذن لهم وأخر الإذن له حتى أخذوا مجالسهم فلما دخل عليه قال عبد الملك يا أهل الشام أتعرفون هذا ؟ قالوا : لا ، فقال : هذا عبيدالله بن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نومى على الفراش ولمّا تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العـذراء[1]

فقالوا يا أمير المؤمنين : اسقنا دم هذا المنافق فقال : الآن وقد أمّنته ؟ وصار فى منزلى ، وعلى بساطى ، قد أخرت الإذن له لتقتلوه فلم تفعلوا ؛ فاستأذنه ابن قيس فى أن ينشده مديحه فأذن له ، ويبدو بوضوح إلحاح الرواية على إبراز العداء الشديد الذى يكنه أهل الشام لابن قيس بوصفه شاعر آل الزبير وقريش التى تضيق بنفوذهم وباعتماد الدولة عليهم ، كما تعرّض الرواية بوفاء عبد الملك وتجعله يهم بالغدر بابن قيس بعد أن أمنه ، بل تدينه بالغدر ، إذ أتاح لأهل الشام فرصة يقتلون فيها ابن قيس بتأخير الإذن له ،

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٨٤

وتمضى الرواية فتذكر أن ابن قيس أنشد عبد الملك قصيدته التى ذكر فيها مضيفته الكوفية بقوله :

عاد له من كثيرة الطرب فعينه بالدموع تنسكب
كوفيّة نازح محلتها لا أم دارها ولا صعب
والله ما إن صبت إلىّ ولا أن كان بينى وبينها سبب
إلا الذى أورثت كثيرة فى القلب وللحب سورة عجب[1]

وقد انتهى فيها ابن قيس إلى مدح عبد الملك بقوله :

إن الأغر الذى أبوه أبوالعا ص عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وتذكر الرواية أن عبد الملك غضب لذلك حتى منع ابن قيس عطاءه أبدا محتجًا عليه بأنه إنما يمدحه بالتاج كأنه من العجم بينما يقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء[2]

وقد لجأ ابن قيس بعد ذلك إلى عبدالله بن جعفر بن أبى طالب مرة أخرى إذ أن الأمان الذى جلبه له لم ينفعه وقد ترك حيًا كميت لا يأخذ مع الناس عطاء أبدا ، وينهض ابن جعفر بعطاء ابن قيس فيجعل له أربعين ألف درهم إلى أن يموت ، وعند ذلك مدحه ابن قيس بقوله :

تقدت بى الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلها ونهارها
تزور امرءًا قد يعلم الله أنه تجود له كف قليل غرارها
أتيناك نثنى بالذى أنت أهله عليك كما يثنى على الروض جارها
فوالله لولا أن تزور ابن جعفر لكان قليلا فى دمشق قرارها
إذا مت لم يوصل صديق ولم تقم طريق من المعروف أنت منارها
ذكرتك إن فاض الفرات بأرضنا وفاض بأعلى الرقمتين بحارها

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٧ .
(٢ الديوان ص ١٨٦ .

وعندى مما خول الله هجمـــة عطاؤك فيها شولها وعشارها
مباركة كانت عطاء مباركا تمانح كبراها وتنمى صغارها[١]

وواضح أنه يعرّض فى هذه الأبيات بعبد الملك فى حذر شديد عندما يذهب إلى أنه ليس هناك غير القليل النادر ممن لهم جود ابن جعفر ، وكأنه يقصد إلى إغاظته حين يزعم أنه لولا وجود ابن جعفر فى دمشق فى هذه الآونة لكان مزارها قليلا وقراره بها نزرا يسيرا ، وكأنه لا جود هناك إلا جود ابن جعفر الذى إذا مات فلن يوصل صديق ولن تقوم منارة على طريق المعروف من بعده .

ويبدو أن عبد الملك قد تنبه إلى ذلك فعاب قوله تظاهرا بالتحرج من التعبير بقد قبل قوله علم الله — سبحانه وتعالى — فقال له : « ويحك يا ابن قيس أما اتقيت الله حين تقول لابن جعفر :

تزور امرأ قد يعلم الله أنـــه تجود له كف قليل غرارهـــا

ألا قلت : قد يعلم الناس ولم تقل قد يعلم الله ؟» فقال ابن قيس : « قد والله علمه الله ، وعلمته أنت ، وعلمته أنا ، وعلمه الناس »[٢] .

ويذكر أبو الفرج رواية أخرى فى حصول ابن قيس على أمان عبد الملك بطريقة تختلف فى التفاصيل عن تلك الرواية الزبيرية السند والهوى التى ذكرنا .

وهذه الرواية تذهب إلى أن ابن جعفر بنفسه هو الذى شفع له عند عبد الملك حينما طلبه ليقتله فاستجار ابن قيس به وقصده فألفاه نائماً وكان ابن قيس كما قدمنا صديقاً لسائب خاثر الذى لزم عبد الله واقتصر عليه فطلب إليه أن يستأذن له عليه وأنبأه خبر ابن قيس فأذن له ورحّب به وقرّبه فدعا ابن جعفر بظبية فيها دنانير وعهد إلى سائب خاثر أن يعدّ له منها فجعل سائب يعد ويترنم ويحسن صوته بجهده حتى عد ثلثمائة دينار وسكت فقال عبدالله : مالك ويلك سكت ؟ ما هذا وقت قطع الصوت الحسن فجعل يعد حتى نفد

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٧ .
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٧ .

ما كان فى الظبية ويبلغ ثمانمائة دينار ، فلما قبضها ابن قيس ، طلب منه أن يسأل عبد الملك فى أمره فوعده بذلك وأوصاه إذا دخل إليه معه ودعا بالطعام أن يسىء الأكل فلما دخل عليه وقدم الطعام جعل ابن قيس يأكل أكلا فاحشا حتى سأل عبد الملك ابن جعفر عنه من يكون ؟ فأجاب ابن جعفر بأن هذا إنسان لايجوز إلا أن يكون صادقاً إذا استبقى وإن قتل كان أكذب الناس فعجب عبد الملك وتساءل : كيف ذلك ، فقال ابن جعفر : ذلك لأنه يقول :

ما نقموا من بنى أميـــــة إلا أنهم يحلمون إن غضبـــوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبته فيما مدحكم به . فقال عبدالملك « فهو آمن ولكن لاأعطيه عطاء من بيت المال »قال ابن جعفر : « ولم وقد وهبته لى فأحب أن تهب لى عطاءه أيضاً كما وهبت لى دمه ، وعفوت لى عن ذنبه » فقال عبدالملك قد فعلت فقال ابن جعفر : وتعطيه ما فاته من العطاء فقال : قد فعلت ، وأمر له بذلك[1] .

وهكذا تختلف الروايتان حول شخصية الشفيع الذى حصل لابن قيس على أمان عبد الملك فهو فى الرواية الزبيرية أم البنين وفى الرواية الثانية عبدالله ابن جعفر نفسه ، وليس ذلك إلا لأن الرواية الأولى تريد أن تزج بأم البنين فى أمر الشفاعة له لما لذلك من علاقة بما شهر به ابن قيس من الغزل بها مكايدة لبنى أمية . وتختلف الروايتان أيضاً حول منع عبد الملك ابن قيس عطاء بيت المال ، فالرواية الأولى تجعل ابن جعفر ينهض بأمره من ماله الخاص بينما تجعله الرواية الثانية يستوهب عبد الملك عطاءه كما استوهبه حريته .

وأيًّا كان أمر هاتين الروايتين فإنهما متفقتان على أن ابن قيس الرقيات كان مهدرًا لزبيريته ولهواه فى آل الزبير ولخروجه مع مصعب ولهجومه فى أشعاره على بنى أمية أعدائه الألداء كما يصرح بذلك فى شعره ، ولعبثه بهم وكيده لهم بتغزله الفاضح فى نسائهم وكذلك تتفق الروايتان على أنه لما قتل مصعب

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٨ .

وقتل بعده أخوه عبدالله هرب ملتجئاً إلى عبدالملك بن جعفر بن أبى طالب الذى هيأ له بنفسه أو باتصالاته أن يحصل على أمان عبد الملك وعلى ما يقوم بأمر نفقته .

وتتفق الروايتان على أن/ ابن قيس الرقيات مدح عبد الملك بن مروان كما مدح عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وإن كان مديحه لعبد الملك فاترا لا روح فيه ولا عاطفة بخلاف مديحه لابن جعفر ، ونحن لا نستطيع الزعم بأن مديحه لعبد الملك كان من باب التقية فصلته ببنى أمية لاشك فيها ، ولا مراء فى أنه أفاض فى مدحهم ورثائهم إذ ولى وجهه شطر العراق فمدح بشر بن مروان ونال الجزيل من عطائه ، ثم جذبه جود عبد العزيز بن مروان فى مصر فرحل إليه ومكث عنده طويلا ، يمدحه ويرتع فى نواله ، ويذكر فى ثنايا مديحه مشاهد مصر كبابليون وحلوان والنيل وغير ذلك ، وكان له رأى فى بعض الأحداث السياسية الخاصة بالبيت المروانى ، فعندما فكر عبد الملك فى صرف ولاية العهد عن أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد مال ابن قيس إلى جانب عبد العزيز وصار معه على أخيه .

ونراه فى بعض مدائحه له يبشره بالخلافة وبانتهائها إليه وإلى بنيه فيقول :

لتهنه مصر والعراق ومـــــا بالشام من بزه ومن ذهبـــه
يخلفك البيض من بنيك كما يخلف عود النضار فى شعبه
نحن على بيعة الرسول ومـــــا أعطى من عجمه ومن عربه(١)

وقد بلغت القصيدة مسامع عبد الملك فقال إن ابن قيس قد دخل مدخلا ضيقا ، وتهدده وعرف ابن قيس ذلك فلم يقر له قرار وضاقت الدنيا فى عينيه فنظم قصيدة بديعة فى ذم من يغتابونه عند عبد الملك رياء ونفاقا ، ورمز فى افتتاحيتها إلى ما يلازمه من نحس بالغراب فى قوله :

بشر الظبى والغراب بسعدى مرحباً بالذى يقول الغراب(٢)

وأتبع ذلك بعدة قصائد فى مدح عبد الملك افتتح بعضها بالغزل فى أم

---

(١) الديوان ص ١٦٦
(٢) الديوان ص ١٦٩

البنين ولكنه نهج فيه نهج الغزل الوقور على شاكلة ما كان يتغزل به فى عائشة زوج مصعب من قبل ، ووصلة ابن قيس بالأمويين أعداء آل الزبير وخصومهم السياسيين لا ينبغى أن تسمح للشك بأن يتسرب إلينا فى قوة إخلاصه لمذهبه السياسى ، ونحن لا نستطيع أن نرمى الشاعر بالنفاق لاتصاله ببنى أمية وبالشيعة بعد زوال سلطان آل الزبير ، وذلك لأن ابن قيس قرشى قبل أن يكون زبيرى الهوى ، وهو لم يعتنق مذهب الزبيريين إلا استجابة لنزوعه القرشى أصلا ، وبنو أمية من قريش وإذا كان الحزب الذى والاه قد سقط فإن الصبغ القرشى لم يذهب من هؤلاء فأى قرشى كفء يتولى الحكم فيه الغناء وإن كان قرشياً ولم يكن كفئاً ففيه بعض الغناء وهو إن كان كره بنى أمية فهو لم يكرههم لأنهم بنو أمية وإنما لاعتزازهم على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمنية ، ولأنهم فتحوا بذلك الباب أمام افتراق كلمة قريش . هذا الافتراق الآثم الذى حدث بعد وفاة يزيد بن معاوية .

وعلى هذا الأساس القوى من أصالة نزوعه إلى القرشية كان اتصاله ببنى أمية وبنى هاشم جميعاً ، فهم قرشيون وأولو قرباه ، ولا غضاضة فى مدحهم ، والإشادة بهم ، مادام السلطان سلطان قريش ، وبنفس تلك النظرة يجب أن ننظر إلى صلته بعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وقد كان ابن قيس منقطعاً إليه وكان ابن جعفر يصله ويقضى دينه ، وهو الذى استأمن له عبد الملك فأمنه وهو الذى وفر له النفقة التى تقوم بأمره كما مر .

وهو لكل هذا ولقرشيته قبل كل هذا أصبح ممدوح ابن قيس الرقيات الأثير عنده وكأنه وجد فيه صورة لمصعب بن الزبير فى قرشيته وسخائه ومكانته ، ولابن قيس فيه مدائح كثيرة تنم عن عاطفة صادقة وحارة كما سبق أن لاحظنا .

ويبدو أن ابن جعفر كان يبادله حبه وإعجابه ويقدر إخلاصه ووفاءه ومن أمثلة ذلك أنه جاءته صلة من عبدالملك ، وابن قيس غائب فأمر خازنه

فخبأ له صلته فلما قدم دفعها إليه وأعطاه جارية حسناء مما ألهج لسانه بالثناء على هذا النحو :

إذا زرت عبدالله نفسى فداؤه رجعت بفضل من نداه ونائل
وإن غبت عنه كان للود حافظا ولم يك عنى فى المغيب بغافل
تدارعنى عبد الإله وقد بـــدت لذى الحقد والشنآن منى مقاتلى
فأنقذنى من غمرة الموت بعدما رأيت حياض الموت جم المناهل
حبانى — لما جئتـــه بعطيـــة وجارية حسناء ذات خلاخل(١)

لم يكن مديح ابن قيس للأمويين إذن ولا للهاشميين نتيجة لعدم صدقه فى اعتقاده للنظرية الزبيرية فقد كان الشاعر مخلصاً لعقيدته أشد الإخلاص كما لم تكن صلته بخصوم حزبه نكوصاً عن تعاليمه ورجوعاً عن التزام بها فقد ظل الشاعر يدين لهذه التعاليم بالإيمان ولا يعنى اتصاله بهؤلاء القوم من بنى أمية وبنى هاشم أكثر من كونه تعبيرا عن النزوع القرشى الأصيل الذى كان بمثابة القاعدة الأساسية لتعاليم الحزب الزبيرى وبمثابة محور الاعتقاد لدى الشاعر .

وعلى هذا الأساس وحده وانطلاقاً من هذا المحور لايعد الشاعر ضعيف الإيمان أو متناقض الولاء . وهكذا لم يحبس الشاعر نزوعه القرشى على آل الزبير وحدهم وأيضاً فإنه لم يحبس شعره فى الدعاوة لهم والهجوم على خصومهم فحسب إذ مدح الأمويين والشيعة ومدح رجالا غيرهم وافتخر بقريش ودعا إلى وحدتها وتحسر على فرقة شملها بعد اجتماعه وسخط على ارتفاع اليمنية واستبدادها بمضر وتغزل بنساء الأمويين ليغيظهم وتغزل فى نفس الوقت بنساء الزبيريين غزلا وقورا نوه فيه بعفتهن وطهارتهن كما تغزل بنساء أخريات تعلق بهن .

وابن قيس الرقيات من شعراء الفرق القليلين الذين تركوا خلفهم مجموعة من الشعر تشكل ديواناً كفيلا بأن يلقى الأضواء على نوازع الشاعر وحياته وفنه(٢).

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٨ .

(٢) نشر الديوان المستشرق النمسوى رود كناكس فى فينا سنة ١٩٠٢ وحققه علميا فى بيروت محمد يوسف نجم .

وتذهب كثرة الديوان فى الدعوة إلى الاعتداد بالقرشية ونصرة الزبيريين الذين يعتدون بها على خصومهم السياسيين الذين يعتدون بالعصبيات الأخرى فى حماية سلطانهم والدعوة إلى وحدة قريش وقوتها دعوة لا يسلك فيها الشاعر مسلكاً فكرياًّ معيناً كما فعل الكميت مثلا بسلوكه مسلك البرهنة والاحتجاج فى تأييد مذهبه ، وإنما سلك ابن قيس فى سبيل ذلك ذات المسلك الغنائى التقليدى للشعر العربى مستندا إلى وسائل التأثير العاطفى فجاء شعره لذلك متدفقاً سيالا لم تعوق اندفاعه برهنة أو استدلال وإن شابته خطابية واضحة .

وتسود شعره السياسى عاطفة حزينة تكاد تشبه عاطفة الشيعة وهو أصدق ما يكون عاطفية حينما يتناول فى شعره مصعباً وعبدالله بن جعفر أو وحدة قريش المفككة وكذلك فى ثورته على بنى أمية وحلفائهم .

فهو فى مديح مصعب مثلا متدفق وحار العاطفة بخلاف مديحه لعبدالملك ابن مروان إذ أن عنصر الصناعة فيه يغلب على العاطفة ، ويبدو التكلف والافتعال طاغياً على صدق الإحساس وحقيقة المشاعر ، وهذا أمر لم يخف على عبدالملك عندما مدحه بقصيدته التى مدحه فيها بالتاج كأنه من العجم والتى احتج على مدحه له بها بقوله فى مصعب إنه شهاب من الله وليس شك فى أن عبد الملك محق فى ا. تجاجه على ابن قيس ذلك لأن مدحه لمصعب كان أليق بالحاكم المسلم بينما جاء مدحه لعبد الملك أبعد ما يكون عن ذلك وكان يجدر به بدلا من وصف جبينه بالإشراق أن يخلع عليه بعض الصفات الخلقية والنفسية التى تليق به كالبسالة والعدل والهيبة والحكمة وغير ذلك مما يرضى طموح الرجال ويحبون أن يوصفوا به .

وقد بلغ ابن قيس فى صدق مشاعره تجاه مصعب مبلغا بعيد المدى ونكاد نلمح دموعه وهو يرثيه عقب موقعة دير الجاثليق أمام عبدالملك إذ يقول مندداً بقعود مضر عن ا نصرته على ربيعة التى قتلته لتنصر بنى أمية ولكى تدرك ثاراتها القديمة عند مضر العراق ، يقول ابن قيس :

إن الرزيـــة يـــــوم مسكـــ ـــــن والمصيبـــة والفجيعـــــة

بابـــن الحـــوارىّ الـــذى   لم يعـــده أهـــل الوقيعـــة
غدرت به مضر العـــرا   ق وأمكنت منه ربيعـــة
فأصبت وِترك يا ربيـــ   ـــع وكنت سامعة مطيعـــة[1]

وأظننا لسنا بحاجة إلى أن نعود فنذكر ما بين تشبيبه بزوجتى مصعب وتشبيبه المقذع بنسوة بنى أمية من بون شاسع ، فالصورتان إذا ما اقترنتا تكشفان عن إخلاص واضح فى الثناء العفيف بصفات الجمال الوقور على نسوة الزبيريين واحتيال خبيث للعبث ببنى أمية وإغاظتهم وهو فن أجاده ابن قيس وبرز فيه بروزا واضحاً ولكننا على الرغم من هذا نشعر بأن الحكم على عاطفته فى هذا الغزل الهجائى أمر عسير التحقيق بحيث لا نستطيع أن نتبين ما إذا كان الشاعر صادقاً فى عاطفته أم مزيفاً لها ، وهل يشبب فيه بصاحبته لأنه يحبها حقاً أم لأنه يكره أهلها وإن كنا نعرف فى نفس الوقت غايته من وراء هذا الغزل ، وليس هذا إلا أثرا من آثار تلك العاطفية التى تسود شعره كله وبخاصة ما يمس فى نفسه نزوعاً أصيلا من نوازعها كالقرشية مثلا وما يتفق ومزاجه العاطفى من تعلق بالحسان وميل إلى اللهو والمعابثة وبسبب من نزوعه الأصيل إلى القرشية وبسبب من مزاجه العاطفى يكاد ابن قيس يختص بكونه صاحب شعر سياسة ولهو . وقد امتزج الأمران عنده كما رأينا فهو قد يتغزل بقصد اللهو أو ليصف عواطفه حقاً ، وهو قد يتغزل أيضاً ليعبث بخصومه السياسيين .

والحق أننا لا نكاد نجد فرقاً بين غزله أيّاً كان نوعه من حيث صدق العاطفة وحرارتها فغزله كله لا يفتقر إلى العاطفة الحارة حتى هذا الغزل الكيدى أيضاً الأمر الذى دفع ببعض الدارسين إلى القول بأنه فى غزله الكيدى كان يخاصم الرجال دون النساء[2] أى أنه اتخذ النساء وسيلة إلى حرب الرجال فتملقهن حتى يحبب إليهم هذا الغزل الهجائى الذى كان يسوء رجالهن والذى حرص فيه إلى حد على ألا يؤذيهن ، وقد رأينا كيف احتاط فى غزله بأم

(١) الديوان ص ١١٢
(٢) حديث الأربعاء ج ١ ص ٥٠ .

البنين بعد أن جعلها تتيه بجمالها وفصل ما حدث معها ، فزعم أن هذه القصة بحذافيرها قد وقعت له فى المنام . وكل ذلك فى عاطفية رقيقة وصياغة سلسلة رشيقة تعرف طريقها فى يسر إلى غرور الحسناوات من نساء الأشراف والأسرة المالكة اللائى كن يكلفن بالتلطف إليهن وإظهار الإعجاب بهن ويطلبن إلى الشعراء دون حرج أو حياء ، وليس شك فى أن هذا شفع له عندها وكان دافعاً لها إلى التشفع له عند أبيها .

ولذلك فنحن لا نكاد نجد فرقاً من حيث صدق العاطفة وحرارتها بين تغزله بأم البنين خلال الكيد لأهلها وبين تغزله بأى امرأة أخرى تعلق قلبه بها .

وإذا ما تركنا غزله الكيدى إلى سائر شعره فى الغزل رأيناه كله يستوى فى صدقه وحرارة عاطفته ولهجته وقوة أسره وفى رقته الخلابة ومع ذلك فليس فى حياة ابن قيس ولا فى شعره ما يمكن أن يجعلنا نظن أنه كان عذرياً فى حبه أوأنه قصر عاطفته على امرأة واحدة فالحقيقة أنه لم يعرف شيئاً من هذا ولم يكن موحدا فى حبه بحيث يجسد عواطفه فى امرأة بعينها وإنما كان يرى الحب معنى مجردا ومطلقاً لا يحده غير مثل أعلى للجمال راح يخلعه على كل امرأة يرى بينه وبينها تماثلا أو اقترابا ، وهو على هذا كان يحب النساء جميعاً حباً لا يفتقر إلى الصدق ، وكان ذلك سببافى أن جاء شعره أيضاً لا يفتقر إلى حرارة العاطفة أو صدق اللهجة فما أم البنين أو عاتكة أو عائشة أو سكينة أو رقية أو كثيرة أو سعدى وغيرهن إلا نسخ متعددة وقريبة الشبه من الصورة التى يحملها فى نفسه ، ولهذا كنا لانكاد نجد لإحداهن تميزا بقدر أكبر من حرارة عاطفته أو صدق لهجته .

ونحن نشعر بصدق عاطفته حين نقرأ له أبياته التى يذكر فيها تلك المرأة التى آوته فى الكوفة وهو مهدر الدم والتى قامت على رعاية شئونه عاما كاملا حتى هيأت له سبل الرحيل فى أمان ، فلما سألها عن نفسها ليكافئها أبت أن تبوح بذلك فانصرف عنها وهو لا يعرف عنها شيئاً غير اسمها الذى سمعها تدعى به ، فلم يستطع لها مكافأة إلا بالغزل فيها على هذا النحو :

عاد له من كثيرة الطـــرب فعينه بالدمــــوع تنسكب
كـــوفية نازح محلتهـــــا لا أمم دارهـــا ولا صعـــب
والله ما إن صبت إلى ولا إن كان بينى وبينهـــا سبب
إلا الذى أورثت كثيرة فى الــــ قلب وللحب سورة عجب
لا بارك الله فى الغوانى فـــلا يصبحن إلا لهـــن مطّلب
أبصرن شيباً علا الذؤابة فى الـ رأس حديثاً كأنه العطب
فهن ينكرن ما رأيـــن ولا يعرف لى فى لداتى اللعب(١)

وهو غزل عفيف صادق اللهجة ، وثناء متسم بالوقار والطهر حتّى ليسحب الشاعر هذا الطهر على نفسه فيعلن زهده فى اللهو واللعب ، وقد ذكر كثيرة فى مواضع متعددة من شعره ، وخلع عليها صفات الوقار حتّى ليجعلها أميرة فى قوله :

بانت لتحزننـــــا كثيرة ولقد تكون لنـــا أمـــيرة
حلت فلاليج الســـــوا د وحل أهلى بالجزيـــرة(٢)

وقد عبر عن إعجابه الشديد بها لدرجة أن يتمنى لو لم يكن رآها وذلك عند رحيله من عندها فقد ودعها بقوله :

لججت بحبك أهل العـــراق ولولا كثيرة لم تلجــــج
فليت كثيرة لم تلقـــــنى كثيرة أخت بنى الخزرج (٣)

وهكذا لا يشك من يقرأ غزله فى كثيرة أنه كان صادقاً فى عاطفته نحوها وإن كنا لا نشك فى نفس الوقت فى أنه إنما تغزل بها ليشكرها على ماقدمت إليه من معروف ومع ذلك فلا يكاد غزله فيها يفترق فى صدق لهجته عن غزله برقية بنت عبد الواحد العامرية التى يقول الرواة إن هواه كان فيها دون غيرها وتذكر الروايات أنه علقها وهى تطوف ليلة بالبيت وقد أهوت فاستلمت الركن

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٥٩ .
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٦٢
(٣) نفس الموضع

الأسود وقبلته فأسرع ابن قيس يستلم الركن ويقبله فصادفها قد سبقت إليه ونفحته بردنها فارتدع وسأل عائشة بنت سعد بن أبى وقاص عنها فأخبرته وعند ذلك قال ابن قيس :

من عذيرى ممن يضن بمبذو ل لغيرى علىّ عند الطواف[١]

وفى رقية هذه يقول ابن قيس :

حب هذا الـدل والغنـج والتى فى عينهـا دعـج
والتى إن حدثت كذبـت والتى فى وعدهـا خلـج
وترى فى البيت صورتهـا مثل ما فى البيعة السرج
خبرونى هل على رجـل عاشق من قبلـة حرج[٢]

ونفس هذ ايمكن أن يقال أيضاً عن غزله بغير رقية من مثل سعدى التى يذكرها بمثل قوله :

قد أتانا من آل سعدى رسول حبذا ما يقول لى وأقـول
من فتاة كأنها قرن شمس ضاق عنها دمالج وحجـول
حبذا ليلتى بمـرة كلب غال عنى بها الكوانين غول[٣]

وهكذا لا نكاد نجد واحدة من اللائى تغزل بهن فى شعره تتميز عن سواها فى الاستئثار بعاطفة الشاعر وصدقه ، فكلهن سواء فى ذلك وهذا معنى ما ذهبنا إليه من أن أولاء جميعاً لسن إلانسخا متكررة لصورة مثالية يحملها الشاعر فى نفسه ويخلعها على كل حسناء تماثل تلك الصورة أو تقاربها .

وفضلا عن هذه العاطفة الحارة التى تسرى فى تعبيره دائماً فإن شعره جميعاً يتميز بصفاء لحنه وبعذوبة موسيقاه ، ونقاء أنغامه وسهولة ألفاظه وطواعيتها وماذاك إلا أثر من آثار لزومه للمغنين والمغنيات فى مطلع حياته وحرصه على أن يوفر لأبياته ما يجعلها تطير على ألسنتهم وتوقع على آلاتهم فى يسر وطواعية

---

(١) نفس الموضع
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٥
(٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٦

وقد ذهب بعض الدارسين إلى أنه صنع مرثيته فى قتلى الحرة لتبكى فيها النائحات[١] .

وكانت موسيقاه وسلاسته تبلغان حدّ الروعة فيما يلهو به من شعر ، ففيه تظهر خفة ألحانه وعبثه بالألفاظ واهتمامه بالتوقيع اهتماما بالغاً من مثل قوله :

بكرت عـلى عواذلـى يلحينـنى وألومهنّـه
ويقلن شيب قـد عـلا ك وقد كبرت فقلت إنّـه
إن العـواذل لمنـنى ولن أطيـع أمـورهنّـه
فيما أفيـد من الغـنى والله سـوف يهينهنّـه
ولقـد عصيت الناهيـا ت الناشرات جيوبهنّـه
حتى ارعويت إلى الرشـا د وما ارعويت لنهيهنّـه[٢]

وابن قيس من هذه الناحية يطبع شعره بطوابع الغناء التى عاصرته والتحم بها نظرا لصلاته بأصحابه ولذلك كنا نجد عنده حلاوة النغم وخفة الوزن بحيث تحمل أبياته كل ما يريد المغنون والمغنيات توفيره لألحانهم على مثال قوله :

رقّ بعيشكم لا تهجرينـا ومنينـا المنى ثم امطلينـا
عدينـا فى غد ما شئت إنـا نحب وإن مطلت الواعدينـا
فإما تنجزى عدتى وإمـا نعيش بما نؤمل منـك حينا
أغرك أننى لا صبر عنـدى على هجر وأنك تصبرينا[٣]

وابن قيس لهذا من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والقصيرة كما يظهر فى هذا الوزن الراقص :

رقيـة تيمـت قلـبى فوا كبـدى من الحب
نهـانى إخـوتى عنهـا وما بالقلب من عتب[٤]

---

(١) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٥٤ (٢) الديوان ص ١٤٥
(٣) الأغانى جـ ٤ ص ص ١٦٣
(٤) الأغانى جـ ٤ ص ص ١٦٤

أو قوله وقد سأله فند المغنى عن رائحة أردان رقية :

ســاءلا فنــدا خليلـــى كيــف أردان رقيّــــه
إنـــى علقت خـــودا ذات دل بخترية[١]

ودائماً يجرى شعره وبخاصة ماكان منه فى الغزل على تلك الصورة من عذوبة اللفظ ورشاقة اللحن وخفة الوزن ، وهو لهذا ولما كان يملأ به غزله من صبابة ولوعة وحرارة وصدق يعد من شعراء الطليعة فى الغزل ولوكان خلص للغزل على شاكلة ابن أبى ربيعة مثلا ، ولم يشغل نفسه بالسياسة لكان له شأن آخر فى هذا الفن ، وقد اختصم فيهما نوفل بن مساحق وسعيد بن المسيب فانتهيا إلى أن ابن أبى ربيعة أشعر فى الغزل بينما ابن قيس أكثر منه أفانين شعر[٢] .

وعلى الرغم من هذا فقد كان ينظر إليه على أنه قمة من قمم الغزل فى هذا العصر وفضله البعض على غيره من شعراء الغزل المقدمين فقد فضل ابن أبى عتيق قوله :

والتى إن حدثت كذبــت والتى فى وعدهـــا خلج

على قول كثير :

وأخلفْن ميعادى وخنّ آمانتى وليس لمن خان الأمانة دين

وقال لكثير « سيدك ابن قيس الرقيات كان أعلم منك وأوضع للصواب موضعه فيهن »[٣] وكذلك كان يفضل قوله :

رقىّ بعيشكم لا تهجرينـــا ومنينا المـــنى ثم امطلينـــا
عدينا فى غد ما شئت إنـــا نحب وإن مطلت الواعدينا

على قول كثير :

ولست براض من خليل بنائل قليل ولا أرضى له بقليل

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٥
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٣
(٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٥

واحتج ابن عتيق بأن هذا كلام مكافئ وليس بعاشق ، وأصدق منه فى التعبير عن عواطف العشاق ابن قيس »[١] .

وهناك شيء لم نتعرض له بعد عند ابن قيس ، إذ كان أول من دعا إلى التحرر من محاكاة القدماء فى بكاء الأطلال والوقوف على الديار الدارسة وترديد ذكرى الحبيبة مما جرى عليه القدماء فى التمهيد لموضوع قصيدهم ، وهو بهذا أسبق من أبى نواس وهو وإن لم يدع مثله إلى إحلال ديباجة محل أخرى فقد سبقه إلى السخرية من التمسك بهذا الصنيع والتقيد به فى قوله :

هل للديار بأهلهـــا علـــم أم هل تبين فينطق الرسم
قالت رقيّة فيم تصرمنـــا أرقّ ليس لوجهك الصرم
تخطو بخلخالين حشوهمـــا ساقان مار عليهما اللحـــم
يا صاح هل أبكاك موقفنـــا أم هل علينا فى البكا اثم
بل ما بكاؤك منزلا خلقـــــا قفرا يلوح كأنه الرسم[٢]

ودعوة ابن قيس هذه فى اعتقادنا ليست إلا صدى لما أخذ به نفسه فى شعره من صدق وكراهة للتكلف مما لا يتفق والتقيد بتقليد القدماء ومحاكاتهم وقد تنبه ابن قيس إلى أن الشاعر بحرصه على وصف الأطلال والبكاء على الديار ، وقد تغير العصر واختفت هذه المشاهد من حياته ، لن يكون إلا كاذباً فى مشاعره ، ولن يكون شعره إلا مجرد صنعة فنية باردة تنقصها حرارة الصدق وقوة الطبع .

وينسب إلى ابن قيس أيضاً أنه كان أسبق الشعراء المسلمين إلى ابتداع الغزل الهجائى الذى استحدثوه فى هذا العصر [٣] والحقيقة أن ابن قيس قد بلغ فى هذا الفن شأواً لم يبلغه شاعر ، ولكنه لم يكن بحال أول من ابتدع هذا الفن لأنه كان معروفاً قبله وقبل عصره أيضاً إذ كان بعض الجاهلين يصطنعه ادعاء فى مقدمات قصائد الفخر والهجاء ليشهر بخصوم قومه ، ومن هؤلاء قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت ، فقد ذكر حسان بن ثابت فى شعره ليلى

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٤
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٣
(٣) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٥١

أخت قيس بن الخطيم ، فذكر قيس عمرة امرأة حسان فى شعره[١] . فلما جاء الإسلام اختفى مثل هذا اللون تحرجا ثم ظهر بظهور الصراع والخصومة من حول السلطان ، فبعثه عبد الرحمن بن حسان فى تشبيبه برملة بنت معاوية[٢] ولكن ابن قيس خالف عن هؤلاء جميعاً فى أنه قدم بغزله السياسى للمديح واصطنع فيه الملق المحبب لقلوب النساء فأرضاهن وأسخط رجالهن فى نفس الوقت .

وقد سار على نهج ابن قيس شعراء كثيرون من مثل العرجى بتغزله فى أم محمد بن هشام المخزومى والى هشام بن عبدالملك على مكة[٣] وبتغزله أيضاً فى زوجة هذا الوالى نفسه[٤] ولقى حتفه بسبب هذا الشعر بعد أن ظل سجيناً فى سجن محمد تسع سنوات[٥] .

فليس الغزل الكيدى فنًّا إسلاميًّا ، وإنما هو جاهلى مبتعث ولكنه لم يزدهر إلا عند ابن قيس الرقيات الذى برع فيه وحمل غيره من الشعراء على محاكاته وتمثله . وعلى الرغم من قرشية ابن قيس وحجازيته فقد كان بعض اللغويين لا يثقون بفصاحته ويتهمونه بحجة أنه شغل نفسه بالشرب بتكريت كما ذهب إلى ذلك يونس بن حبيب تلميذ أبى عمرو بن العلاء وقد سئل عن قول ابن قيس فى قصيدة مدح بها عبد العزيز بن مروان :

ترضع شبلين وسط غيلهما قد ناهزا للفطام أو فطما
ما مر يوم إلا وعندهما لحم رجال أو يولغان دما[٦]

وكان ابن قيس قد قال يألغان وهى لهجة خاصة فى يوْلغان ، وقد أدى اعتراض يونس إلى تغيير النص إلى يؤلغان ويولغان على المعلوم والمجهول ،

---

(١) الأغانى جـ ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ١٤١ — ١٤٣
(٣) الأغانى جـ ١ ص ١٥٦
(٤) الأغانى جـ ١ ص ١٥٧
(٥) نفس المرجع
(٦) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٠

وعاب عليه أيضاً بعض اللغويين قوله فى مديح ابن جعفر :

تقدت بى الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلهـا ونهارها

إذ ناقض صدره بعجزه ، فقال إنها سارت سيرا بغير عجل ثم وصفها بغاية الدأب فى السير بعد ذلك[١] . ولما أنشد قوله هذا ابن عتيق تهكم به بقوله : « كانت هذه يا بن أم فيم أرى عمياء » . وكان يعاتبه عندما يمر به ويسلم عليه بقوله : « وعليك السلام يا فارس العمياء » فقال ابن قيس له : « ما هذا الاسم الحادث يا أبا محمد ؟ » قال أنت سميت نفسك حيث قلت ذلك ، فما يستوى الليل والنهار إلا على عمياء ، وقد برر ابن قيس قوله بأنه إنما يعنى أنها لفرط تعبها لم تكن تعبأ بالزمان أكان ليلا أم نهارا وهو تبرير جميل ولكنه لم يقنع ابن عتيق إذ قال له إن بيته يحتاج بهذه الصورة إلى ترجمان يترجم عنه[٢] .

وبعد ، فهذا هو عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر قريش الذى لم يقصر فنه على السياسة والدعوة لها على الرغم من التزامه بمذهب سياسى ، فجاء شعره صدى لحياته التى توزعت بين السياسة واللهو ، وقد بلغ فى كل منهما مبلغا بعيد الشأو .

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٩ .

(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٦١ .